

مُعَاتِبَةُ النَّفْسِ

موعظة في توبیخ النفس ولو مها للإمام الغزالی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للنشر - والتحقيق - والتوزيع

شارع الميدانية - أقسام بمقدمة بهذين النماذج

ت ٣٢١٥٨٧ م. ب ٤٧٧

كتاب قد حوى دررًا بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبئهاً حقوق الطبع محفوظة
للناشر
دار الصحابة للتراث بطنطا
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .
المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا
ش المديريه بجوار محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ .
ت: ٣٣١٥٨٧

[٢ / معاشرة النفس / صحابة]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلوة والسلام على رسوله الذى
اصطفى عليه السلام .

أخي المسلم : راقب نفسك ولا حظها فى أقوالها وأعمالها ،
وحاسب نفسك قبل أن تحاسب وزن عملك قبل أن يوزن
عليك وراجعها حين تحرف ، أو تهم بشيء من الانحراف
لتعيدها إلى الصراط ، وتقيمها عليه ، وتلزمها به وتعاتبها إن
سعت بطبيعة إلى الخير . لتفجر بها ينابيع كوامن الخير والبركة .
وهكذا .

وبذلك تكون قد حاسبت نفسك ونصبت من نفسك
قاضياً وحارساً يقظاً حذراً تمنعها من السوء وتدفعها إلى الطيب
من القول والعمل .

واعلم أخي الحبيب :

أن لومك لنفسك ومحاسبتها لا تعنى مجرد المعايبة واللوم
فكن مثل التاجر الذى يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى
يتجر فيه ، ثم يحاسبه .

فما بالك بتجارة رأس مالها المحاسبة وربحها الفردوس
الأعلى ، فتدقيق الحساب مع النفس أهم بكثير من تدقيقه في
أرباح الدنيا .

أخى : ألا تجد نفسك تلوم وتقسو في الحكم وتحصى على
غيرك كل صغيرة وكبيرة خاصة إذا كنت مسؤولا ؟ فنفسك
أولى أن تعتابها وتحصى عليها وتؤدبها .

أخى لاتنسَ

أن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها
فكل يوم يمر لا يأتي مثله ، ما تكتسبه اليوم رصيد لك غداً
ها هو الإمام الغزالى يصحبنا ويقدم لنا الدواء لمعاتبة النفس .

أبو حذيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم (١) أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أماره بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلسل القهر (٢) إلى عبادة ربها و خالقها و منعها عن شهواتها و فطامها عن ذاتها ، فإن أهميتها جمحت و شردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتسويغ والمعاتبة والعدل واللامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها و معاتبتها ولا تستغلن بوعظ غيرك مالم تستغل أولا بوعظ نفسك قال تعالى ﴿ وذكرا فیان الذکری تنفع المؤمنین ﴾ [سورة الذاريات / ٥٥] وسيله أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها و غباؤتها وأنها أبداً تتغدر بفطنتها و هدایتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها :

(١) بداية نص كلام الغزالى من كتابه الإحياء [٤ / ٣٨٠] .

(٢) الغمر : الغلبة

« يا نفس ...

ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت
أشد الناس غباؤة وحمقا .

أما تعرفين ما يدين يديك من الجنة والنار . وأنك صائرة إلى
إدحاما على القرب (١) .

فما لك تفرحين وتضحكين . وتشتغلين باللهو . وأنت
مطلوبه لهذا الخطب الجسيم ؟ . وعساك اليوم تختطفين
أو غدا . فأراك ترين الموت بعيدا . ويراه الله قريبا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما
ليس بآت ؟ .

أما تعلمين أن الموت يأتي بفترة من غير تقديم رسول ، ومن
غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ،
ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في
نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون
الشباب . ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس

(١) لأن العمر محدود مهما طال فموعده قريب .

يمكن أن يكون فيه الموت فجأة . فإن لم يكن الموت فجأة
فيكون المرض فجأة . ثم يفضى إلى الموت .

فمالك لاستعددين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب .
أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة
معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه
وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾ ؟ ... [الأنبياء / ١]

ويحك يا نفس ! إن كانت جراءتك على معصية الله
لاعتقادك أن الله لا يراك ؛ فما أعظم كفرك وإن كان مع
علمك باطلاعه عليك ؛ فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ! .

ويحك يا نفس ! . لو واجهك عبد من عبادك . بل أخ من
إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه .
ومقتك له (١) ، فبأى جسارة (٢) تتعرضين لمقت الله
وغضبه . وشديد عقابه ؟ . أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيئات
هيئات . جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه .
فاحتبسى ساعة فى الشمس . أو فى بيت الحمام (٣) . أو قربى
إصبعك من النار . ليتبين لك قدر طاقتك .

(١) وبغضبك له . (٢) شجاعة . (٣) دورة المياه .

أَمْ تَغْتَرِينَ بِكَرْمِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ . وَاسْتَغْنَاهُ عَنْ طَاعَتِكَ
وَعِبَادَتِكَ . فَمَا لَكَ لَا تَعُولِينَ عَلَى كَرْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَهَمَّاتِ
دُنْيَاكَ ؟ . إِنَّا لَنَا مَا شَاءَ إِنَّا لَنَا مَا شَاءَ إِنَّا لَنَا مَا شَاءَ
تَكْلِيْنَاهُ إِلَى كَرْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّا أَرْهَقْتَكَ حَاجَةً إِلَى شَهْوَةِ
شَهْوَاتِ الدُّنْيَا مَا لَا يَنْقُضُ إِلَّا بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ . فَمَا لَكَ
تَنْزَعِينَ الرُّوْحَ فِي طَلَبِهَا وَتَحْصِيلِهَا مِنْ وِجُوهِ الْحَيْلِ ؟ .

فَلَمْ لَا تَعُولِينَ عَلَى كَرْمِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعْثِرَ بِكَ عَلَى كَنْزٍ .
أَوْ يَسْخِرَ عَبْدَكَ مِنْ عَبِيدِهِ ، فَيَحْمِلَ إِلَيْكَ حَاجَتَكَ مِنْ غَيْرِ سُعْيٍ
مِنْكَ وَلَا طَلْبٍ ؟ .

أَفْتَحْسِبِينَ أَنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ فِي الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا ، وَقَدْ عَرَفْتَ
أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ لَا تَبْدِيلَ لَهَا . وَأَنَّ رَبَّ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا وَاحِدٌ ، وَأَنَّ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى .

وَيَحْكُمُ يَا نَفْسُ ! . مَا أَعْجَبْ نِفَاقَكَ وَدُعَاوَيْكَ الْبَاطِلَةَ .
فَإِنَّكَ تَدْعَيْنَ الإِيمَانَ بِلِسَانَكَ ، وَأَثْرَ النِّفَاقَ ظَاهِرَ عَلَيْكَ . أَلَمْ يَقُلْ
لَكَ سَيِّدُكَ وَمَوْلَاكَ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
زُرْقَهَا ﴾ [هود / 6] وَقَالَ فِي أَمْرِ الْآنْتَرَةِ :
﴿ وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النَّجَم / 39] .

فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعي فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتکالبین (۱) على طلبها تکالب المدهوش المستهتر (۲) ، وكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحق . ما هذا من علامات الإيمان .

لو كان الإيمان باللسان ، فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ !

ويحك يا نفس ! . كأنك لا تؤمنين يوم الحساب . وتظن أنك إذا مت انفلت وتخلصت . هيئات (۳) . أتحسبين أنك تركين سدى (۴) ؟ .

ألم تكوني نطفة من مهني يعني (۵) ثم كنت علقة فخلق فسوى ؟ ! ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى﴾ ؟ [القيامة/ ۴۰] فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك

(۱) من شدة الحرص على الدنيا .

(۲) المدهوش : الذي ذهب عقله ، والمستهتر : المولع بالشىء .

(۳) كلمة تقال : لما يصعب مناله .

(۴) بلا حساب ولا عقاب .

(۵) وهو ما يتكون منه الجنين .

وأجهلك . أما تتفكرين أنه ماذا خلقك ؟ . من نطفة خلقك (١) فقدرك . ثم السبيل يسرك . ثم أماتك فأقربك . أفك كذبته في قوله : ثم إذا شاء أنشرك ؟ .

فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ . ولو أن يهودياً أخبرك في أللذ أطعنتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهاهت نفسك فيه . أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة ، أقل عنك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس (٢) وتخمين وظن ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟ !

والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عرقاً لرميتك ثوبك في الحال ، من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عنك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ .

أم صار حر جهنم ، وأغلالها وأنكالها (٣) . وزقومها ومقامعها ، وصديدها وسمومها ، وأفاعيها وعقاربها ، أحقر

(١) ماء التناسل من الرجل والمرأة . (٢) الظن والتخمين .

(٣) القيد الشديد

عندك من عقرب لا تحسين بآلمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ .
ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالك
لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك !!

فإن كنت يا نفس ، قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ،
فمالك تسوفين (١) العمل والموت لك بالمرصاد . ولعله
يختطفك من غير مهلة . فبماذا آمنت استعجال الأجل ؟ وهبك
أنت وعدت بالإمهال مائة سنة . أفتظنين أن من يطعم الدابة في
حضيض العقبة (٢) يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ .
إن ظنت ذلك فما أعظم جهلك .

رأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متقطعاً
بطالاً (٣) ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى
وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظننه أن تفقيه النفس مما

(١) التسويف : تأجيل الشيء والمماطلة فيه .

(٢) العقبة : الطريق غير المهد الوعر الخاص بالجبال فلا حياة فيه ولا
مرعى .

(٣) فلا عمل له والبطل صاحب الباطل .

يطعم فيه بحدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تناول من غير تفقه ، اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ! .

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصى إلى الدرجات العلي ، فلعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تستغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمها ، فما المانع من المبادرة ، وما الباقي لك على التسويف ؟ .

هل له سبب إلا عجزك من مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ .

أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ .

هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلقه . فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذكراً تعيدين نفسك وتقولين : غداً غداً ؟ .

فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ؟ . أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس . لا بل تعجزين عنه اليوم . ، فأنت غداً عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة

كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد (١) بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى . فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً وهنّا ، مما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المثيب ، بل من العناصر رياضة الهرم . ومن التعذيب تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركتين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين : ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباؤتك ، وأقبح اعتذارك .

(١) وهو أن يؤجر العبد بقتلها ومامور من الله بذلك

إن كنت صادقة في ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية
عن الكدورات الدائمة أبد الآباد (١)، ولا مطعم في ذلك إلا
في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها،
فرب أكلة تمنع أكلات.

وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء
البارد ثلاثة أيام، ليصح ويهنا بشربه طول عمره، وأخبره أنه إن
شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا، امتنع عليه شربه طوال العمر،
فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة: أياصبر ثلاثة أيام ليتنعم
طول العمر، أم يقضى شهوته في الحال خوفًا من ألم المخالفة
ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثة مائة يوم وثلاثة
ف يوم؟.

مبيع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل
عذاب أهل النار. أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع

(١) تعنى الاستمرار الدائم طول الدهر.

العمر وإن طالت مدتھ .

وليت شعرى : ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة . أو ألم النار في دركات (١) جهنم ؟ . فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ؟

ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لکفر خفى أو لحمق جلى .

أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بیوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الشواب والعقاب . وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغناه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في جميع ذلك بجميع الحيل .

(١) فالدرجات لأهل الجنات وهي لا على والدرجات لأهل النار وهي لأسفل .

وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ
حيث قال : « الكيس (١) من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ،
والأحمق من أتبع نفسه هواها وتنى على الله الأمانى » (٢) .

ويحك يا نفس !

لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ،
فانظرى لنفسك . فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك .
فالأنفاس معدودة . فإذا مضى منك نفس ، فقد ذهب بعضك
. فاغتنم الصحة قبل السقم . والفراغ قبل الشغل . والغنى
قبل الفقر . والشباب قبل الهرم . والحياة قبل الموت . واستعدى
للآخرة على قدر بقائك فيها .

(١) العاقل وإدانة النفس : اتهامها بالتقصير لتردد من فعل الخيرات .
(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الترمذى (٢٤٦١) وأحمد (٤/١٢٤) والطبرى في الكبير (٣٣٨/٧) والبيهقى (٣٦٩/٣) والبغوى
في شرح السنة (١٤/٣٠٩) من حديث شداد بن أوس
—رضى الله — مرفوعاً .

يا نفس . أما تستعدين للشتاء بقدر طول مده . فتجمعن له
القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تتكلين في ذلك
على فضل الله وكرمه . حتى يدفع عنك البرد من غير
جبة ولبد وخطب وغير ذلك ؟ فإنه قادر على ذلك .

أفتقظين أيتها النفس أن زمهرير (١) جهنم أخف برداً وأقصر
مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلاً أن
يكون هذا كذلك . أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة
والبرودة .

أفتقظين أن العبد ينجو منها بغير سعي . هيئات . كما لا يندفع
برد الشتاء إلا بالجبة (٢) والنار ، وسائر الأسباب .

(١) الزمهرير : شدة البرد

(٢) بالجبة والنار : يلبس الثقيل والسملك من الثياب ليتقى بها من البر ،
وكذلك بالتدفئة .

فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وختن دعى
الطاعات . وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن .
ويسر لك أسبابه . لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه .

كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار
وهذاك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر . حتى
تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الخطب
والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومالك وإنما تشترينه لنفسك . إذ
خلقك سببا لاستراحةك . فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو
مستغن عنها: وإنما هي طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه
، ومن أساء فعليها ، والله غنى عن العالمين .
ويحك يا نفس ! .

انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا
يكم إلا كنفس واحدة . وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما
أكم تعودون . وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديل ولا
توكيل .

ويحك يا نفس ! .

ما أراك إلا ألفت الدنيا . وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها

وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتأكددين في نفسك مودتها .
فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أحوال القيمة
وأحوالها ، ألم أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ؟ .

أفترى أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ،
فمن نظره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر
لا محالة إلى مفارقه . فهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ .

أما تعلمين أن الدنيا دار ملك الملوك . وما لك فيها إلا
مجاز (١) ، وكل ما فيها لا يصح للمحتازين بها بعد الموت ،
ولذلك قال سيد البشر عليه السلام : « إن روح القدس (٢) نفت في
روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقة ، واعمل ما شئت فإنك
مجزى به . وعش ما شئت فإنك ميت » (٣) .

(١) أي عبر الطريق وقطعه

(٢) هو جبريل عليه السلام ونفت : أي أوحى في نفسي .

(٣) إسناده ضعيف :

قال العراقي في تعليقه على الإحياء (١/٨٨) رواه الشيرازي في
الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبراني في الأصغر
وال الأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ! .

أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهنك وهو لا يدرى ؟ .

أو ماتنتظرين إلى الذين مضوا : كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداء هم ؟ .

أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ، وينون مالا يسكنون ، ويؤملون مالا يدركون ؟ .

يبنى كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقره قبر مههور تحت الأرض .

فهل في الدنيا حمق وانتكاس (١) أعظم من هذا ؟
يعمر الواحد دنياه وهو مرتاح عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟ .

(١) وهل في الدنيا إلا خيبة وخسران لم يتخذ الإسلام منهجاً

واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين (١) على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عنده ، إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ! ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ؟ .

ولعلك يا نفس أنسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد من على وجه الأرض من عبادك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك :

(١) غير المفارقين لها .

فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (١)؟

فكيف تبיעين يا نفس ما يبقى أبداً بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى؟! هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض. سلم لك الشرق والغرب، حتى أذعن لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب. كيف وياي إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك (٢)، بل أمر دارك، فضلاً عن محلتك؟

إإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفاً عن خسفة شركائهما. وتنزهاً عن كثرة عنائهما، وتوقياً من سرعة فنائهما؟! أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها؟! وما لك تفرجين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والجhos يسبقونك بها، ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها؟ فأف لدinya يسبقك بها هؤلاء الأحساء؟!

فما أجهلك، وأحس همتك وأسقط رأيك، إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين، في

(١) فليس لهم ذكر ولا سيرة والركز: الصوت الخفي.

(٢) المحلة: المنزل.

جوار رب العالمين ، أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من
جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل ، فيا حسرة عليك إن
خسرت الدنيا والدين ١ .

فبادرى ويحك يا نفس . فقد أشرفت على الهاك .
واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد
الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ .

ويحك يا نفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك ، إن
انجرت فيها وقد ضيغت أكثرها ، فلو بكت بقية عمرك على
ما ضيغت منها ، لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف إذا
ضيغت البقية ، وأصررت على عادتك ؟ .

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ،
والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر (١) بين
يديك ؟ .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد
ينتظرونك ، وقد آلوا (٢) على أنفسهم كلهم بالإيمان المغلظة

(١) الفزع الأكبر : يوم النشور يوم البعث والعرض الأكبر

(٢) أقسموا وحلقوا .

أنهم لا يرحو من مكаниهم مالم يأخذوك معهم؟ .

· أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضييعين أيامك في الغفلة والبطالة؟ .

ويحك يا نفس ! .

أما تستحيين؟ تزيين ظاهرك للخلق وتبازين الله في السر بالعظائم؟ أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ، ويحك.

أهو أهون الناظرين عليك؟ . أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكري بالله وأنت له ناسية؟ . أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنت من العذرة^(١) وأن العذرة لا تطهر غيرها ، فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك؟ .

ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حماراً لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا

(١) ما يخرج من دبر الإنسان.

تعجبين بعملك ، وفيه من الآفات مالونجوت منه رأسا
برأس (١) لكان الربح في يدك . وكيف تعجبين بعملك مع
كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة ،
بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة
واحدة ، مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس ، ما أغدرك . ويحك يا نفس ، ما أوقحك ،
ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي ! . ويحك
كم تعقدين فتنقضين (٢) ، ويحك ، كم تعهددين فتغدررين .

ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك
كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرین إلى أهل القبور
كيف كانوا : جمعوا كثيراً ، وبنوا مشيداً (٣) وأملوا بعيداً ،
فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

ويحك يا نفس ، أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟
أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ . هيهات

(١) الكفتان متساويةتان لا لك ولا عليك .

(٢) تؤكدين العهد والميثاق ثم لا تفرين من ذلك .

(٣) عمارات شاهقة .

هيئات، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فابني على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي (١) ، أن تبدو رسيل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكثرة الوجوه . وبشرى بالعذاب ؟ . فهل ينفعك حينئذ الندم . أو يقبل منك الحزن . أو يرحم منك البكاء ؟ .

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفتنة ، ومن فطنتك أنك تفرجين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ .

ويحك يا نفس ! تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغداً لا يبلغه ، فأنت شاهدين بذلك في إخوانك وأقاربك وجيروانك ، فترىين تحسرونهم عند

(١) وهو كناية عن خروج الروح .

الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه
أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه ، حتى يسأله عن عمله
دقائقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين
أمام الله وبأى لسان تحيين . وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب
صواباً ، واعملى بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي
دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم
وخلود .

اعملى قبل أن لا تعملى ، وآخر جى من الدنيا اختياراً
خروج الأحرار ، قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا
تفرحى بما يساعدك من زهارات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ،
ورب مغبون لا يشعر . فويل من له الويل ثم لا يشعر ، يضحك
ويفرح ، ويله ويرح ، ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب
الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً ، وسعيك لها
اضطراراً (١) ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة

(١) أي يكون السعي قدر الحاجة والكافاف .

ابتداراً (١) ، ولا تكونى من يعجز عن شكر ما أوتى ، ويستغنى
الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى .

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ،
ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار
به وإن لم يسر .

(١) مسارعاً ومسابقاً .

العلاج

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالموااظبة على الصيام ، فإن لم تزل فيقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فيبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له .

فإن لم يق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طريق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ؟

وهل تسمع عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟

فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة (١) ، فقد
بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء ،
واستغishi بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ،
وأدمني الاستغاثة ، ولا تمل طول الشكایة ، لعله أن يرحم
ضعفك ويفيتك ، فإن مصيبيتك قد عظمت ، وبليتك قد
تفاقمت ، وتماديتك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ،
وراحت عنك العلل . فلا مذنب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا
مهرب ، ولا ملجاً ولا منجى إلا إلى مولاك فافزعى إليه
بالتضرع ، وانخشى في تضرعك على قدر عظم جهلك
وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويفيتك الطالب
المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم
مضطورة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبيل ،
وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنج
فيك العطاءات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ،

(١) نزول الدمع : دليل على التأثر والرحمة

والمسؤول جواد ، المستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعة ،
والكرم فائض والعفو شامل .

وقولى : يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم
يا عظيم يا كريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ،
أنا المتمادى الذى لا أستحي ، هذا مقام المتضرع المسكين ،
والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق ، فعجل
إغاثتى وفرجى ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك
ومغفرتك ، وارزقنى قوة عصمتك ، يا أرحم الراحمين » اه .

دار النصر لطبعات الابراهيمية
٢ - شارع نشاطى شبرا القصاهرة
الرقم البريدى - ١١٢٣١

كِلْلَ الصَّحَافَةِ الْمُتَّرَابَةِ
بَطْنَطَا
لِلنُّشُرِ وَالْتَّحْقِيقِ وَالثَّوْزِيعِ
ت: ٤٧٧ - ص.ب ٣٣١٥٨٧
شَارِعِ الْمَدِيرِيَّةِ
لَاقِسْ: ٤٠/٣٣٨٧٦٩

To: www.al-mostafa.com